« دفاعاً عن الثورية »

بقلم نزيه الحكيم

ارجو الا يساء فهمي : فليست «دفاعا عن الثورية» فحسب ، ترجمتي التي صدرت مؤخرا تحت هذا العنوان لوثائق محاكمة « ريجي دوبريه » ولبعض من دراساته عن اميركا اللاتينية ولقاءاته مع ثوارها . بل هي ايضا وبالدرجة الاولى ، هذه الترجمة ، (شأن كتب اخرى قبلها اخترت نقلها الى العربية) دفاع عن الثورية الناجعة ضد « الثورية في ذاتها » ، وعن الثورة الشعبية ضد مزعوم الثورة باسم الشعب او باسم مصلحته .

والقضية ليست قضية نوايا فحسب . جهنم نفسها يقال انها مزروعة بالنوايا الطيبة . وكتاب الحسنات والسيئات في قيادة الشعوب قد يضع كثيرين من انبياء الثورة في جهنم لانهم حلموا بالتغيير فحسب ثم لم تكن لديهم عن التغيير المطلوب رؤيا واضحة وانسانية وقابلة للتحقق ، وقامروا بمصائر وطنهم حين لم يسلكوا الى هذا التغيير طريقه السديد .

الثورية حب عميق الاحترام للغد في انسان اليوم، لانها الايمان بمقدرة الانسان ان يتفوق على ذاته . ولكن « الانسان المتفوق » الثوري ذا الحلم المجرد الكبير — بازدرائه العفوي احيانا لحاضر البشر ولاحلامهم ، وبدعواه لخلق انسان الغد الجديد بسلطة اليوم — كثيرا ما كان بلاء على مصائر اجيال كاملة ، وكثيرا ما سد الطريق الى الغد او جعل محاولة الوثبة من فوق هذا الطريق اطول كثيرا واشقى ثمنا منها لو سلك بخطى التطور الوئيد ، خطى الاحلام الصغيرة ومعارك التغيير الجزئية .

... هذا بصرف النظر عن حديث الثورة الزائفة ، تلك التي ترفع لواء القيم الجديدة وتفلسفها وتسوط الناس باسمها ولا مطلب لها في الواقع الا الاحتفاظ بالسلطة ، تذود عنها برد الشعب الى عصبيات رجعية تجاوزها منذ قرون وبجعل سلاحه سلاحا ضده ، وباضفاء قدسية على نظامها تجعل بقاءه اولى من بقاء الوطن .

الثورية الصادقة اذن ، الثورية الشعبية الناجعة ، هي بالطبع نقيض الرجعية لانها تريد هدى القديم بعبوديته وجوره وتخلفه طلبا لجديد فيه امل الحرية والعدل والتقدم . ولكنها في الوقت ذاته نقيض الثورية المجردة، نقيض « الثورة للثورة » ، لانها تحقق الوثبة الى قيم الغد انطلاقا لا من الضباب بل من ظروف الحاضر الموضوعية وضرورة تغييرها واحتمالاته ، وبأداة ليست الوصاية على الشعب بل هي جماهير الشعب نفسه وارادته .

أما الثورة المجردة — غير المعرفة بدوافعها وبظروفها التاريخية وتناقضات قواها — فهي ككل المجردات لا تصلح أساسا علميا للحكم ولا منطلقا ناجعا للممارسة . أعني اننا لا نملك بالعلم أن نقول « أية » ثورة هي أفضل من « أي » نظام قائم أو من « أي » نهج اصلاحي لتطوير هذا النظام . ولا العكس صحيح بالطبع .

و « ريجي دوبريه » — بعد قرن من ظهور الجدلية والمادية التاريخية أداة أقرب الى العلم لتحليل الظروف الموضوعية وتغييرها النوعي بالثورة — هو واحد من قلة بين ثوريي اليوم لم تكتف بالثورة على قيم الماضي وقوى المصالح التي تشد اليه وتمنع الغد أن يتخلق ، بل أضافت الى ذلك تطويرات أساسية في ما كان حتى الان يعتبر نماذج عالمية مسلما بها لاساليب العمل الثوري غير المجردة ، عن طريق التحليل الجدلي الموضوعي لمختلف التناقضات في ظروف البلد المتحفز للثورة .

ومن هنا تأتي حاجة الشبان العرب — ثوريين وغير ثوريين — الى دراسة نظرية هذا المفكر الجديد ، لا ليتخذوا من نتائجها نموذجا آخر للتقليد بديلا من النماذج السابقة، بل ليحتذوا حذوه في دراسة الظروف الخاصة ببلادهم وتناقضات القوى الفاعلة فيها ، ولينتهوا من ذلك كله الى نظرية عربية ، الى نهج عربي للتغيير المطلوب وسبيله الوحيد أو الخيارات بين سبله ، الى استراتيجية عمل عربية (لا بمعنى امتيازها بالعصبية عن سواها بل مغايرتها له تبعا لما تختص به من سمات موضعية وتاريخية) ، بدلا من ديمومة البحران في متاهات الثورة المجردة ، المستعارة الشعارات والوسائل والسياسات ، والتي أثبتت « النكسة » — على الاقل — انها لا أكسبت الحاضر منعة ضد العدوان ولا قدمت من صورة الغد ما يجعل قوة الماضي أقل تماسكا وأوهن حلفاء .

***

فأما الصراع بين القديم والجديد ، بين المؤسسة الغاربة والرسالة المشرقة ، فتجد صورته كاملة في محاكمة « ريجي دوبريه » أمام القضاء البوليفي : في شكلياتها المتمسكة بحرفية أصول عسكرية للمحاكمات وضعتها السلطة الضالعة مع الاستعمار دفاعا عن بقائها ،

وفي دفاعه هو عـــن رسالة المناضلين ، وفي « الاسباب الموجبة » التي برر بها قضاته الحكم عليه .

نفس القصة القديمة المتكررة في كل جيل ، في كل بلد ، فـــي كل صراع بين قيم الامس وقيم الغد ، بين العدوان وبين الانسان .

لو انه انتصر عليهم لحاكمهم بمنطق الثورة ، ولكنه انهزم ـ مؤقتا ـ فحاكموه بمنطق الاستمرار .

قبله حاكموا فيدل كاسترو يوم هزيمته في «مونكادا» فكان دفاعه ـ « التاريخ سيبرئني » ـ ادانة لهم لم يلبث أن نفذها بانتصار الثـــورة . وقبلهما عرفت السجن أو استشهدت قوافل كثيرة من الثوار ، منـذ سبارتاكوس والمسيح حتى ٦ أيار وما بعده ، لم يستطيعوا أحيانا حتى الدفاع عن أنفسهم . بل رأينا سحمدا ، في المرحلة الاولى من ثورتـــه التي كانت ما تزال ضئيلة القوة ، يضطر أن يقـــول لقريش : « لكم دينكم ولي دين » ، ثم يضطر أن يهاجر من بطشهم الى المدينة كما يفعل لاجئو هذه الايام ، حتى اذا تدحرجت بين قدميه المنتصرتين أصنام الكعبـة أعلن ان الدين لله وحده .

وبعده وبعدهم اليوم نشهد فدائيي فلسطين تحاكمهم سلطات الاحتلال . منطقها منطق بطش الحاضر ومنطقهم منطق حق الحاضر الذي يعمل ليصبح قـوة المستقبل . فاذا قرأت دفاع « ريجي دوبريه » عرفت ما يقوله ثـوار الارض المحتلة في محاكماتهم الصورية أو ما ينبغي لهم أن يقولوه . فكل جملة ضد الاستعمار نطق بها هذا الفرنسي في بوليفيا كأنما هي دفاع ثائر في فلسطين رفضا لزعم المحتل حق محاكمته .

***

وأما دروس تطوير « ريجي دوبريه » لنظرية الثورة، هذه الدروس المتناثرة في القسم الثاني من الكتاب وفي كتاباته الاخرى ، ولا سيما في « **ثورة في الثورة** » ، فهي أخصب وأكثر تعقدا من أن نلخصها سطور مقالة . ومـع ذلك فان بين ظروف بلدان أميركا اللاتينية التي درسهـا وبين ظروف وطننا من وجوه التقارب الطاغية على نقاط التخالف ما يستحق الاشارة الى نظرته اليه في اطـار تطور التاريخ الثوري .

فلنحاول التذكير بأهم مراحل هذا التطور فـي خطوطها الرئيسية حتى يتضح بالمقارنة معها ما أتى بـه « دوبريه » من جديد :

١ ـ بدأت الثورة تأخذ طابع الادارة العلمية للتغيير النوعي على يدي ماركس وأنجلز . كانا قد بلغا الشبـاب والفلسفة الالمانية في أوجها بجدلية هيجل ، والاقتصاد الانكليزي في ازدهاره تصنيعا وتجارة ونظريات ، وفرنسا البورجوازية بعد الثورة تضج بالـــدعوات الاشتراكية ، والعلم الوضعي في أوروبا الغربية كلها دين جديد ، فرفضا ابقاء الغيبيات القديمة في ثغرات هذا العلم ، ونصبـــا هيكلا لمعبود جديد هو قـوة يد العامل التي تحرك دولاب الآلة . ثم جعلا لتطور العلاقات البشرية بقيادة هذه القوة قوانين كقوانين الطبيعة ، بحيث يصنـــع البشر التاريخ ولكن وفق حتميات مستقـــلة عنهم ، لا تكاد الاحزاب العمالية (المفروض تعددها) تمثل فيها أكثر مـــن دور القابلة ساعة المخاض . ولما كانت الصناعة في قوة انطلاقها الكاسحة الاولى فقـــد اعتبرا الزراعة خارج معركـة المستقبل ، ووضعا الفلاحين الجهلاء غير المنظمين فـي مؤخرة العربة . وكانت أنظارهما لا تكاد تطل على خارج العالم الغربي ، فحاربا القومية في عالمهما هذا داعييـن الى الاممية البروليتارية ، تيسر تكامل وعي الطبقة العاملة ووحدتها لتقوم بالثورة متى نضجت ظروفها : ثورة لا تكاد تقتضي العنف اذ تقوم بها الاكثرية الساحقة من الشعوب فتزيح الاقلية المالكة عن المصانع لتجعل منها ملكية عامة . ولم يكـــن الاستعمار الغربي اذ ذاك قـد أصبح مشكلة أساسيـــة ، فكادا لا يأبهان الا قليلا بشعـوب القارات الاخرى ، بل شجعا أحيـــانا على غزوها باسم معبـود التقدم الجديد (١) .

٢ ـ ثم جاء لينين . وكان قد مضى نصف قـرن لم تظهر خلاله في الغرب الصنـــاعي بوادر الثورة التي تنبأ بها أبوا « الاشتراكية العلميـــة » ، بل تضاءلـت احتمالات قيامها بتزايد الثروة وتحسن ظروف العمـال المعاشية على حساب المستعمرات . ورأى لينين ان هذا الاتجاه « سيمنع التاريخ أن يتحقق » ، ولا سيما تاريخ بلاده ، وان الجماهير اذا تركت لوعيهـا فلن تثور ، وان قضية تحقيق الاشتراكية قضية سلطـة اشتراكيين أولا (ولو كان على هذه السلطة في البداية أن تحقق مهمـات غير اشتراكية) ، وهي بالتالي مسألة طليعة ضئيلة العدد من الثوار المحترفين لا تنتظر مزاج الحتميات التاريخية بل تدفع بمشيئتها ظروف الثورة دفعـــا الى النضج : مسألة حزب ثوري محترف قائد ، واحد عمليا . ظلـت « الحقيقة » بروليتارية نظريا ، ولكن أصبحت تصدر عن قادة حزب من المثقفين محترفي الثـورة ، الذين يؤلفون طبقة خارج الطبقات ، والذين تمارس قيادتهم بعد الثورة « دكتاتوريـــة البروليتاريا الديمقراطيـة » باسم هـذه البروليتاريا ، أي بالوصاية الطليعية عليهـا وبكسبها الى صفها بعد الثورة (المتمثلة بصورة رئيسية في انقـلاب مسلح مفاجىء في العاصمة والمدن الكبرى) ، بانتظـار أن تضمحل الدولة ... ونظرا لوجود أكثرية من الفلاحين

---

(١) يقول أنجلز في التعليق على فشل ثورة عبدالقادر في الجزائر : « على العموم ، من وجهة نظرنا ، كان من حسن الحظ جدا أن وقع هذا الزعيم العربي في الاسر ... ان احتلال الجزائر عامل هـــام وايجابي من أجل تقدم المدنية ... وفي نهاية الامر ، يظل البورجوازي ، بما يحمله معه من مدنية وصناعة ونظام ، وما يلحق به من استنـارة نسبية ، أفضل من الاقطاعي زعيم اللصوص البدويين ومن حال المجتمع البربري الذي ينتسبون اليه » (٢٢ ـ ١ ـ ١٨٤٨) . وهناك نصوص مماثلة عديدة بشأن الاستعمار في اسيا وافريقيا ، له ولماركس .

في روسيا فقد أرتقى هؤلاء الفلاحون في النظرية الى رتبة مرتبة الرديف أو الحليف . وكان لا بد من حل مشكلة القوميات العديدة غير الروسيه التي تضمها امبراطورية القيصر ، فحلت بمبدأ حق تقرير المصير ، (لا سيما وان هذا المصير سيقرره عمليا في كل منها الحزب الطليعي نفسه فيها فلا يغير شيئا من الامر) ، وعلى أن تتفاعل هذه القومية مع أممية عمالية عالمية مهمتها حماية « قاعدة الثورة » بانتظار أن تعم الثورة العالم الاوروبي . أما الشعوب المستعمرة في القارات الاخرى فيرجى أن تثور (او لا يرجى في الصيغة الستالينية الاولى) شريطة أن تعمل هي الاخرى بقيادة الطليعة الشيوعية السوفياتية (٢) مواجهة للامبريالية العالمية .

٣ ـ ومرة أخرى ، بعد الثورة التي اندلعت في « أضعف حلقات السلسلة الرأسمالية » ، طال انتظار الثورة في أوروبا الصناعية ، واندلعت بدلا منها في عالم كله فلاحون : في الصين . وفي صين « ماوتسي تونغ » أصبح الفلاحون في القيادة الى جانب الاقلية العمالية ، واقتضى انتصار الثورة تحول حزب الطليعة الى حزب « طليعي ـ جماهيري » ، كما اقتضى « مسيرة كبرى » دامت ربع قرن . وبعد هذا الانتصار اكتشفت الصين ان أخذ الجميع بالاشتراكية لا يحقق الوحدة الاممية ، وان التناقض الكبير في عصر الامبريالية ليس بين الرأسمالية والاشتراكية بل بين الاغنياء والفقراء (الذين أرادت الصين بدورها أن تكون قاعدة لثورتهم) . واذ ذاك نشأ عالم عدم الانحياز تعبيرا سياسيا عن هذه الحقيقة ورفضا عمليا لها ، أعني : رفضا في الوقت ذاته لحتمية الانقياد الى « طليعة » من الخارج .

٤ ـ أما الثورة الاشتراكية الكبرى الثالثة فانفجرت في كوبا (بصرف النظر عن الاشتراكيات التي استوردت « طليعتها الثورية » من الخارج كالديمقراطيات الشعبية أو فرضت من أعلى ولاولويات سياسية كاشتراكيات بعض دول افريقيا وآسيا) . وهنا ، في كوبا ، اكتمل انقلاب الآية وبدأت المسيرة من الريف البعيد عن العاصمة ، من « البؤرة الثورية » ، أي بحرب العصابات ، ومن غير حزب بالمرة ، بل بتنظيم عسكري غير ماركسي تجتمع قيادته العسكرية والسياسية في شخص واحد : فيدل كاسترو ، تنظيم يضع نظريته من خلال الممارسة ، ويقوم اضافة الى الحرب الثورية بتوعية فقراء الفلاحين واكتسابهم الى صفه قبل أن يمتد الى المدينة وعمالها . أما بعد انتصار الثورة فأظن اننا لن نعرف قط الحقيقة حول أسباب أخذ فيدل كاسترو بالماركسية اللينينية : هل جاء خطوة أخيرة في استراتيجية مرسومة من قبل ؟ أم جاء نتيجة لقناعة متأخرة ودفاعا عن الثورة في وجه ضراوة عداء الامبريالية الاميركية ؟ المهم ان «الكاسترويه» على أية حال ، قد « احتوت » الحزب الشيوعي الكوبي القديم بدلا من أن تعمل بقيادته . واذا كان من مألوف القول ان الثورة تأكل أبناءها فثورة كوبا أكلت أبناء الآخرين ... وكان لا بد اذ ذاك من أن يتجسد انعكاس هذا الواقع الجديد على النظرية الشيوعية الرسمية (مع انعكاس الثورات الاخرى في العالم الثالث) ، فنشأت صيغة نظرية جديدة ، هي صيغة «الطريق غير الرأسمالية» التي تبارك « حركات التحرر الوطني » في البلدان المتخلفة ولو لم تكن لها طليعة شيوعية .

وهنا يجيء دور « ريجي دوبريه » .

ذلك ان كوبا ، هي الاخرى ، راودها الحلم السوفياتي والصيني نفسه ، حلم « أكثر من كوبا واحدة » ، حلم أن تصبح بدورها « قاعدة للثورة » في أميركا اللاتينية . وآوت كوبا الى فراشها وهي تحلم ان يشرق الصباح مع انتصارات متعددة لثورات متعددة في أنحاء القارة . ولكن طال الليل والصباح المنتظر لا يشرق .

وأولى النقاط في تفكير « دوبريه » هي ان هذا الصباح لم يعد يمكن أن يشرق لا وفقا للنموذج الكوبي وحده ولا وفقا لاي نموذج سابق له . وقد انتهى الى هذا الرأي من استعراضه لانعكاسات الثورات السابقة ، ومن اكتشافه ما وراء اختلاف مظاهر هذه الانعكاسات من تماثل عميق . فما جرى بعد الثورة السوفياتية مثلا جرى هو نفسه بعد الثورة الكوبية : انتفاضات ثورية مبتسرة ، شبه انتحارية ، تقابلها وتسحقها مراحل متكررة التسلسل من مواقف الطرف الاخر : فترة ترقب ، ثم محاولات تدخل مسلح ، ثم حصار اقتصادي شامل ، ثم فجوات في هذا الحصار عن طريق اتفاقيات تجارية ثنائية (كانت بريطانيا بطلتها في المرتين ، وفي حال الصين أيضا) ، الى جانب محاولات متنوعة متعجلة في البلدان المجاورة التي تخشى « وباء » الثورة : « رشوات » شعبية كالاصلاح الزراعي في بلدان الدانوب ، وكميثاق التحالف في خدمة التقدم » في أميركا اللاتينية ، وانتصار الديمقراطية المسيحية في الشيلي ، أو انقلابات عسكرية رجعية كما حدث في الارجنتين والبرازيل ، كما يرافقها في الوقت نفسه انقسام الاحزاب الشيوعية في أكثر هذه البلدان على نفسها وتحولها عن الصراع الثوري الى التسوية والشرعية البرلمانية .

الثورة اذن ، بمنطق الجدل التاريخي نفسه ، كما يقول « دوبريه » ، ليست معلما للشعب الذي يقوم بها فحسب ، بل هي أيضا معلم للثورة المضادة ، « يحدث ثورة في أساليب الثورة المضادة » . ولذلك فان « باب الثورة الاشتراكية الذي فتحته كوبا على حين غرة تحت أنف الامبريالية ، قد أغلق مرة أخرى اغلاقا محكما في البلدان المجاورة : من الداخل أغلقته الفئة الحاكمة ، ومن الخارج أغلقته الامبريالية المستعدة للتدخل » كما حدث في

---

(٢) راجع بهذا الصدد أقوال لينين الكثيرة في مجموعة « استيقاظ اسيا » .

« سان دومينغو » . « ان مجرد نجاح الثورة الكوبية ، وكونها ثورة بمنظار الامبريالية أيضا ، قد حكم بالفشل على كل محاولة جديدة لتجربة السيبرا مايسترا » (٣) .

ما العمل اذن ؟ هل يرمي الثوريون سلاحهم وينتظرون ثمرات الاصلاح الوئيد ونوايا الامبريالية الحسنة ؟

« ريجي دوبريه » يقول : « لا . ان ثورة من نوع جديد ما تزال مستطاعة » . ثم لا يكتفي بهذا القول بل يذهب بنفسه الى ساحة « الثورة المستطاعة » ، ليشارك في خوضها اذا استطاع الى جانب « تشي » ، فيخونه حظه ويعتقل .

فعلام يبني « دوبريه » موقفه الثوري المتفائل هذا ، بعد ما أعلنه من انغلاق الابواب أمام نماذج الثورات الماضية ؟ ان الجواب على هذا التساؤل يهمنا بوجه خاص ، نحن العرب ، ويهم الثوريين الفلسطينيين بوجه أخص ، بعد ما أشاعته هزيمة ٥ حزيران من شعور بانغلاق أبواب النضال التقليدي (عسكرية وسلمية ، محافظة وثورية ، ومع « الكيان الفلسطيني » أو بدونه) أمام القدرة على وقف العدوان الصهيوني واستنقاذ الارض المحتلة .

يحلل « دوبريه » ظروف الواقع الجديد في اميركا اللاتينية انطلاقا من « الميزان الكلي لعلاقات القوى » ، وبوصفها جزءا من العالم الثالث متميزا في داخله بتاريخ ثقافي وسكاني واجتماعي وسياسي خاص ، وعلى ضوء علاقات أقطارها وقواها الاجتماعية بعضها ببعض وبالولايات المتحدة وبالمعسكر الشيوعي وما يعكسه انقسام هذا المعسكر على تلك العلاقات ... وهذا التحليل (الذي تجده موزعا في نتاجه ، ولا سيما في كتابي « **ثورة في الثورة** » و « **دفاعا عن الثورية** ») ينتهي به الى « **تنظير** » للثورة الكوبية يؤلف بتطويره « خطه عمل للمستقبل » في أميركا اللاتينية تعتبر اضافة جديدة أصيلة الى تاريخ الفكر الثوري . وليس من شأني ولا في عزمي أن أثير جدلا حول هذه النظرية هل هي « تحريف أو مراجعة » أم « ماركسية لينينية خلاقة » أخرى . كل ما سأحاوله هو تجميع المتناثر من فقراتها وايجازه في أضيق حيز متكامل ممكن ، تاركا تفاصيلها للنصوص التي أصبحت كلها الان فيما أظن مترجمة الى العربية (ترجمة يؤسفني انها ليست دائما واضحة) .

يقول « ريجي دوبريه » ما ملخصه :

آ ـ كانت « ثورة اكتوبر » ثورة اجتماعية داخلية ، ثورة طبقات كادحة على فئة مستغلة تملك السلطة . وكذلك كانت ثورتا الصين و « الفييت مينه » قبل أن تنقلبا بالعدوان الخارجي الى ثورتين وطنيتين (أي الى حركتي تحرر) في الوقت نفسه . ولذلك ، ومن وجهة النظر الماركسية ، كان طبيعيا أن تنطلق هذه الثورات بقيادة البروليتاريا ممثلة بحزب الطليعة ، الحزب الماركسي اللينيني ، لتستطيع بانتصار الثورة استلام السلطة وتحقيق التحويل الاشتراكي (بالاضافة الى تحرير الوطن في الحالتين الاخيرتين) .

ب ـ أما في بلدان اميركا اللاتينية (وأكثر بلدان العالم الثالث بوجه عام) فالصراع ليس صراع الطبقات الكادحة ضد الفئات المستغلة الحاكمة الا بالدرجة الثانية، بينما هو بالدرجة الاولى صراع الاكثرية الكبرى من الشعب ضد الامبريالية الاميركية . وبالتالي فهو حركة تحرر وطني ، تحتاج الى ثورة وطنية لا ثورة عقائدية اجتماعية . وان كان من طبيعة هذه الثورة ان تستديم حتى تنتهي الى اقامة نظام اشتراكي . واذن ليس من الهرطقة أن نقول ان هذا الاختلاف في المهمة يمكن ويجب أن يستتبع اختلافا في الاداة .

ج ـ ما هي هذه الاداة الجديدة الملائمة ؟ هل تكون الجيش النظامي فنشجعه على القيام بانقلاب عسكري أو نتعاون مع انقلاب يقوم به ؟ لا . لقد جربت ذلك بعض الاحزاب الشيوعية والتقدمية ـ في الارجنتين والبرازيل وفنزويلا مثلا ـ فأخفقت أيما اخفاق . ذلك لان « أية حكومة يرفعها الانقلاب الى السلطة ، حتى لو قام هذا الانقلاب باسم الطبقات الشعبية وضد فئاتها الحاكمة ، ستكون أسيرة الحاضر ، مضطرة الى البحث عن تدابير سريعة تكسب بها رضى الجماهير » ، ولما كانت « لن تستطيع الاعتماد على الجماهير لافتقاد هذه الجماهير الوعي السياسي والتنظيم ـ وهما أمران لا تستطيع ترسيخهما الا قيادة ذات تجربة ثورية شاقة وطويلة ـ فسيكون عليها أن تستمد العون مما هو قائم فعلا : من المصالح الاقتصادية ، أو من البيروقراطية المتوطدة ، أو من أكثرية الجيش » . وأقصى ما تستطيعه بالتالي مثل هذه الحكومة هو « أن تصدر قوانين اجتماعية تبدو للوهلة الاولى ثورية للمستفيدين منها ، مع انها ديماغوجية فحسب ، فارغة من المحتوى ، لانها لا تستند على أية بنية تحتية اقتصادية صلبة » .

د ـ الثورة التي تضمن أول شروط النجاح ، اذن ، لن يكون ثورة الانقلاب المفاجىء ، بل سيكون مضمونا لها أيضا أن تكون طويلة الصراع مريرة التضحيات . وهي ثورة يقتضي طابعها الوطني أن تكون شعبية ، وأن يتاح الاشتراك فيها لكل مواطن قادر يطلب الحرية ويقف موقف العداء من الامبريالية ، بصرف النظر عن موقفه الطبقي .

وهذه الحقيقة لا يجب ولا يمكن ، في ظروف بلدان أميركا اللاتينية على الاقل ، أن تعني انشاء جبهة أحزاب وطنية وتقدمية من حول « الحزب الماركسي اللينيني » للقيام بهذه المهمة ، اذ ان معركة التحرر الوطني لن تكون

---

(٣) عن دراسة « بعض قضايا الاستراتيجية الثورية في أميركا اللاتينية » التي يحسن الرجوع الى تحليلها التفصيلي الممتاز . (نشرت دار الاداب ترجمة لها ملحقة بكتاب « ثورة في الثورة ») .

معركة سياسية كتلك التي تعودتها هذه الاحزاب . بل ستكون حربا شعبية مسلحة ، حرب جيش شعبي جماهيري (ولو كان من الخير أن يستطيع اجتذاب بعض ضباط وجنود الجيش النظامي المخلصين) . وهي معركة لا بد لها بالضرورة أن تنطلق من الريف ، من الجبل والغابة ، بعيدا عن أجواء نفوذ الاحزاب السياسية ، أي أن تبدأ كحرب عصابات ، قبل أن تمتد الى المدن ثم الى العاصمة ، في مسيرتها الاخيرة حتى النصر .

وكذلك ، بالتالي ، لا يجب ولا يمكن أن تعني هذه الحقيقة جعل الحزب الطليعي أو جبهة الاحزاب المتحالفه معه قيادة سياسية لجيش شعبي مسلح ، تضعه تحت امرة مفوضيها السياسيين : نظريا ، لان الحزب الطليعي حزب عمالي ، حزب مدينة ، لن يستطيع ـ لاسباب استراتيجية وتكتيكية وأخرى تتعلق بأمن الثورة ـ توفير قيادة سياسية من المدينة لحرب عصابات ريفية . وعمليا، لان الاحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية أصبحت أحزابا تقليدية مهترئة ، هرمة القيادات ، منقسمة على نفسها ، اصلاحية وانتهازية في الاغلب ، وقيادتها للجيش الشعبي لو أمكنت ـ وحدها أو مع الاحزاب الاخرى الاقل صلابة ـ ستفسده وستضمن هزيمة الثورة .

وكذلك ، أخيرا ، لا يمكن أن نحول هذه الاحزاب نفسها الى جيش ، أن نبدل لباسها وأن ننقلها الى الريف لنجعل منها نواة للجيش الشعبي تقوده من الداخل ، للاسباب السابقة من جهة ، ومن جهة أخرى « لان القيادة الفعلية للكفاح الثوري المسلح أصبحت تتطلب أسلوبا جديدا في القيادة ، ونوعا جديدا من التنظيم ، وقدرات جسدية واستجابات فكرية ملائمة لطبيعة المعركة عند القياديين وعند المناضلين » .

هـ ـ اذن ؟ الحل الوحيد ـ الشرط الاول للنجاح ـ هو الحل الكوبي : جيش شعبي مسلح ينشأ مباشرة من تجميع المقاتلين الافراد ، تتألف وحدته انطلاقا من القاعدة، من وحدة كل القواعد المناضلة في الاحزاب وخارجها ، من التحالف الوطني المعادي للامبريالية بين الجماهير ، من الفلاحين والعمال والمثقفين الذين ينصهرون بعضا ببعض خلال الكفاح حتى يزول بينهم أو يكاد يزول الشعور بالفوارق الطبقية . وتكون القيادة العسكرية لهذا الجيش هي نفسها قيادته السياسية ، دون أي « مفوضين سياسيين » من الخارج (٤) . وبذلك يستطيع هذا الجيش ـ الذي ينضج وعيه السياسي الى جانب كفاحه العسكري ـ أن يكون هو نفسه النواة القيادية للحزب الذي سيتولى مهام القيادة السياسية بعد النصر الذي حققه ضمانا لعدم تزييف السلطة الشعبية ، بدلا من أن يكون الحزب السياسي نواة للجيش .

(٤) « لنتأمل فقط ـ يقول دوبريه ـ ما لا تزال تعانيه الجزائر اليوم من عقابيل الانقسام (أيام الثورة الوطنية) بين المقاتلين في الداخل وحكومتهم السياسية في الخارج » .

هذا هو التغيير الجذري : احتفظ دوبريه ـ وقبله كاسترو وغيفارا ـ بدور الطليعة لانه لا ثورة بلا طليعة ، ولكنه رفض أن تكون طليعة المثقفين الثوريين المحترفين ، « الطبقة خارج الطبقات » . وفي الوقت نفسه أنذر بأن المعركة ستكون طويلة ، « صينية » ، مسيرة كبرى لا مجرد اضراب ارهابي وانقلاب مفاجىء في «السوفييت» و «الدوما» وبعض الثكنات . وهذا المنطلق الجديد للثورة هو الذي يصفه « دوبريه » بأنه « انتهاء الطلاق الذي استمر عدة عشرات من السنين بين النظرية الماركسية والتطبيق الثوري » . وهذا صحيح الى حد بعيد ، لانه ، اذ يعترف بدور الطليعة ويعيد صياغتها في أتون الكفاح المسلح ، ينفي في الوقت نفسه عن الثورة ـ بما تقوم عليه من محتوى جماهيري واسع ـ صفة ثورية الاقلية التي جعلتها لها اللينينية .

و ـ وتبقى هناك شروط أخرى . من هذه الشروط ـ وفي مقابل هذا المحتوى الوطني العريض للثورة التحررية (٥) ـ ان القيادة العسكرية السياسية للجيش الشعبي يجب ان تكون مطلقة السلطة حتى تضمن النجاح ولا تقع في بعض الاخطاء الضخمة التي عرفتها ثورة كاسترو في بداياتها . عليها ألا تأخذ بالديمقراطية مركزية أو غير مركزية ، بل أن تطبق الانضباط العسكري على أكثر أشكاله صرامة .

وعليها أيضا ـ وبدرجة متصاعدة ـ ان تجعل الجانب السياسي من عمل الجيش الشعبي قادرا على اتمام عملية اكتساب الجماهير الى صفه خلال المعركة ذاتها وقبل الوصول الى السلطة . ولذلك يلح « دوبريه » أبلغ الالحاح على أهمية استخدام الاذاعة وأسلوب هذا الاستخدام ، وعلى ما يسميه « الدعاية المسلحة » .

ز ـ ومرة اخرى يلتقي دوبريه مع كاسترو وغيفارا في رفض اسلوب « الدفاع الذاتي » نهجا لكفاح الجيش الشعبي . فهذا الاسلوب ، أسلوب « الجمهوريات المستقلة » الذي طبقه فلاحو كولومبيا واسلوب « المناطق المحررة » الذي طبقه عمال بوليفيا ، قد لقي الهزيمة على يد الجيش النظامي في المرتين . والاسلوب الانجع لحرب العصابات هو اسلوب « البؤرة » الثورية ، التي تكفل وحدها اوسع قدر من سلامة المحاربين في البداية ، وافضل تربية لهم قبل ان يبدأوا بنصب الكمائن وخوض

(٥) قارن بين هذا الالغاء الماركسي للتصنيفات الطبقية والاجتماعية تجاه أولوية مهمة التحرير المشتركة ، وبين موقف احدى حركاتنا « القومية » مؤخرا » في واحد من اقطارنا المصابة بالاحتلال ، حين تداعت قواه السياسية الى جبهة وطنية سيكون عليها القيام بمهمة تحريرية مزدوجة ، فاذا هذه الحركة تشترط لاشتراكها في الجبهة ، لا « مزيدا من الخطوات الاشتراكية » المستحيلة قطريا فحسب ، بل أيضا « ان تتحقق الديمقراطية الشعبية عن طريق المجالس العمالية » (السوفييات ، التي أصبح دورها شكليا في روسيا نفسها منذ انتصرت الثورة) . وأين ؟ في بلد جعلته « الاشتراكية » المزعومة شبه خال من العمال ! ...

المعارك ، واقرب سبيل الى التوعية المباشرة للجماهير (٦).

ح ـ ويبقى ، في رأي « دوبريه » ، شرطان اضافيان اساسيان لاحراز النصر لم تكن لهما هذه الضرورة في ظروف الثورة الكوبية :

أولهما ألا تقبل حركات التحرر اللاتينية الامريكية مساعدات من المعسكر الاشتراكي الا غير مشروطة ، فتكون لها كل الحرية في أسلوب استخدامها ، وتحرص في الوقت نفسه على ألا تدفع ثمنها تبعية لاية قيادة خارجية ، كما ترفض تشتيت صفوفها ونضالها بالانحياز الى أي طرف من اطراف النزاع داخل هذا المعسكر .

وثانيهما ـ واكثرهما اهمية ـ ان يكون لمختلف حركات التحرر في امريكا اللاتينية « عمقها » القاري ، تعاونا وتنسيقا وتبادل معلومات . ان « دوبريه » يلح على التذكير بكلمة تشي غيفارا : « في وجه بطش امريكا سيكون من العسير جدا على أي من بلادنا وحده ان يحرز الظفر ويعززه . ولذلك ، في مواجهة تحالف قوى القمع ، لا بد من تحالف القوى الشعبية ... الى ان تصبح راية الثورة ، بحكم الضرورة التاريخية ، شاملة لكل القارة » . بل هو يضيف ان هذا الشمول القاري ليس استراتيجية جغرافية فحسب بل ميراث تاريخ نضالي موحد سابق ، تاريخ « قومي » . ولئن كانت تجزئة امريكا اللاتينية قد تمت لمصلحة الاستعمار فلقد كان مناضلوها دائما يعتبرون الحرية فيها وحدة لا تتجزأ . ولئن كانت « بلقنتها » واقعا اليوم فأمريكا نفسها تتجاهل اليوم هذا الواقع وتسلط عليها امبرياليتها كوحدة . وينبغي على أهلها انفسهم ان يبلغوا هذه الوحدة بالعمل الثوري .

ولعل القارىء ، حين يطالع دفاع « دوبريه » في محاكمته فيرى رده على قضاته الذين اتهموا « غيفارا الاجنبي » بالتدخل في « شؤون بوليفيا الداخلية » ، سيذكر معي بتداعي الافكار « محاكمة » مماثلة حاولها نظام الانفصال السوري في مؤتمر شتورا عام ١٩٦٢ فكان الرد الشعبي العربي عليها عنيفا بالغ الازدراء . ولعله يرى معي أيضا ان الامة العربية ، استئنافا طبيعيا لتاريخها الطويل الموحد الحضارة ، وردا لا بديل له على حاضرها الادكن المتزايد « البلقنة » ، اجدر كثيرا من شعوب امريكا اللاتينية بأن تحقق وحدتها ـ بالفعل لا بالشعارات والقصائد وبرامج الاذاعة ـ سبيلا الى التحرر والى الخلاص من الاحتلال والعبودية في فلسطين وفي غير فلسطين .

نزيه الحكيم

---

(٦) على بعد الزمن ، وبصرف النظر عن اختلاف الظروف والاهداف ، وببعض التساهل بشأن دقة المصطلحات ، يمكن القول ان النبي محمدا كان يطبق لاول مرة اسلوب « البؤرة » الثورية حين انتقل من مكة البرجوازية المتسلطة الى وسط يثرب الريفي المتصل بمثقفي اليهود والموحدين ، حيث جمع حوله الانصار واخذ ينصب معهم كمائنه ويباشر بهم غزواته ، ثم انتقل الى اسلوب « المناطق المحررة » الذي انتهى باستسلام مكة .

دار الآداب تقدم صدر حديثاً

الارهابيّون والفدائيّون

تأليف رولان غوشيه

ترجمة ريمون نشاطي

في شهر اذار (مارس) عام ١٨٨١ هاجم بعض الشبان الذين يحملون قنابل يدوية القيصر الكسندر **الثاني ، فقتل القيصر ، ولكن الطغيان ظل حيا .**

ومع ذلك ، فان الارهاب دخل حلبة التاريخ على اثر هذا الحادث . فما لبثت فئات كثيرة ان تبنت **هذا الاسلوب :** الاشتراكيون ـ الثوريون ، الفوضويون ، البولشفيك ، **الجيش الجمهوري الايرلندي ،** الارهابيون **الالمان** والحرس **الحديدي ،** عصابتا الارغون وشتيرن في فلسطين ، **منظمة الجيش السري** الفرنسي الخ... **كما ان** جبهة التحرير الجزائرية قامت باعمال فدائية باهرة ضد **الجيش الفرنسي المحتل ، وكان احد** ابرز قادتها ياسف سعدي . ويقوم الآن الفدائيون **العرب الابطال في** فلسطين باروع **المآثر .**

ولا تزال اعمال الارهاب والفدائية منتشرة في كثير من اقطار العالم ، **والواقع** ان هذا الشكل من **المقاومة يحل تدريجيا محل** الحرب التي يصعب فيها تجنيد كتل بشرية كبيرة **وتوشك ان تؤدي الى نزاع عالمي ذي نتائج خطيرة .**

وهذا الكتاب الذي وضعه الكاتب الفرنسي رولان غوشيه يروي باسلوب جذاب تاريخ الحركات **الارهابية والفدائية في العالم** منذ روسيا القيصرية حتى ايامنا . الثمن ٤٥٠ ق. ل.